پژوهش‌های معناشناختی متون ادبی ، دوره ۱، شماره ۲، سال ۱۴۰۲، صفحات ۱ تا۱۱

پژوهش های معناشناختی متون ادبی

A Critical Investigation of AL- Maarri's thought on woman, World and death: It's Semiotics and Resources

Ibrahim Anari Bozchallouei[a*]

[a] Associate Professor,Department of Arabic Language and Literature,Arak University

KEYWORDS

Abu ala al-Maarri,
innate & pretence to innateness,
woman & world & death.

ABSTRACT

Abu ala al-Maarri lived in the heyday of thoughts in Abbasid II era. He was influenced by thoughts and logic of some contemporary philosophers. Although that period of Abbasid era was fruitful in case of logic and thoughts, social and moral corruptions dominated the society.

It is obvious that maari had not been detached from social and moral atmosphere of Abbasid II era and these had an impact on thoughts and spirituality of the poet and his psychological, social and philosophical viewpoints. These impacts are manifested in his poems. Being inspired by this, maari followed a pious life and a negative attitude toward woman who was believed to be indispensable part of life. Looking at him from this perspective, death was the only salvation and the end of all difficulties, tortures and hardships. By and large, sticking to his instincts was part of his integrity. From this perspective, in order to compensate for his own deprivation, he loved woman and marriage in his sub-consciousness. This fact reflected his return to his true self and interpenetration of theism and his satiety of his greatness versus duality and instinct needs of human being.

From this perspective, in order to compensate for his own deprivation, he loved woman and marriage in his sub-consciousness. This fact reflected his return to his true self and interpenetration of theism and his satiety of his greatness versus duality and instinct needs of human being.

* نویسنده مسئول؛ تلفن: ۰۹۱۸۳۶۳۹۵۴۵

آدرس پست الکترونیکi-anari@araku.ac.ir

آراء المعري في المرأة والدّنيا والموت، دلالاتها ومصادرها

ابراهيم انارى بزچلوئى الف*

الف- الأستاذ المشارک في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة اراک، i-anari@araku.ac.ir

الكلمات المفتاحية:

أبوالعلاء المعرى،

الطبع والتطبع،

المرأة و الدنيا و الموت.

تاريخ البريد:
۱۴۰۲/۰۴/۰۶

تاريخ المراجعه:
۱۴۰۲/۰۵/۰۳

تاريخ القبول:
۱۴۰۲/۰۶/۱۳

الملخّص

عاش المعرّي في العصر العباسي الثاني، و كان عصر ازدهار عقلي، وفي ضوئه تأثرت عقلية المعرّي ببعض الفلاسفة، لكنَّنا مهما اجتهدنا في إثبات أنَّ الحياة العقلية للعباسيين قد كانت راقية، فعلينا أن نعترف بفساد الحياة الاجتماعية والخلقية وانحطاطهما في ذلک العصر، فليس المعرّي بمعزل عن البيئة وتأثيرها عليه، فقد ترك فساد الحياة الاجتماعية والخلقية في نفسه آثاراً في الجوانب الفكرية والاجتماعية والنفسية، فَنَشأ مِن هذه المؤثرات زهده في الدنيا ورفضه المرأةَ كجزء من أجزائها وإيثاره الموت كحلٍّ شامل لهذه المعاناة وبما أنه كان سائماً عن عشرة حكمتْها الذِّلة وسيطرَ عليها الظلم، واستبدَّ بحقوقها الأمراء يظلمونها أشد الظلم، ويكيدون شرَّ الكيد، فطبيعي أن ينصرف عن الدنيا وأن يزهد فيها؛ لأنَّ الإنسان في رأيه شرير بطبعه، وأنَّ الفساد غريزة فيه، ولذلک لم ينتظر منه إصلاحاً ولم يرج لأدوائه شفاءً و زد على هذا أن المعرى فى ضوء الازدهار العقلى تأثر ببعض الفلاسفة ومنهم أبيقور الذي ينتمي إلى النفعيين و رأى في الدنيا والمرأة اللَّذة والألم معاً ولكنه أراد أن يحصِّلهما دون الألم ولم يستطع إلى ذلک سبيلاً، ولعلَّ إيثاره الموت يعود إلى قاعدة اللَّذة؛ لأنَّه رأى أنَّ الألم أكثر من الموت فآثر الموت وبما أن النفعيين يرونَ أنَّ كلَّ نافع جميل مهما يكن شكله، فأبوالعلاء وجد إيثار نفسه على الدنيا والمرأة وإيثار الموت على الحياة نافعاً، فرأى الجمال في انصراف عن كل هؤلاء وإن خالف القياس والشرع. تهدف هذه الدراسة فى ضوء المنهج التوصيفى و التحليلى إلى إزاحة الستار عن الحياة الغامضة للمعرى فخلص البحث إلى أنّه عرف اللذائذ بطبعه، وتركها بتطبعه ناسياً إقراره واعترافه في لزومياته أنَّ الطبع أصيلٌ والتطبع دخيل.

سيرة الشاعر:

ولد أبوالعلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعروف بالمعرّي في معرَّة النعمان في يوم الجمعة من شهر ربيع الأول سنة ۳۶۳هـ. (ابن خلكان، ۱۴۱۷هـ، ج ۱: ۶۴ والحموي، د.تا، ج ۳: ۱۰۷– ۱۰۸). فسمَّاه أبواه أبا العلاء، ولكنَّه كرهَ هذه الكنية (فيما بعد) ورأى أنَّ من الظلم أن يُضاف إلى التصعيد والعلوِ، وإنَّما العدل أن يضاف إلى السقوط والهبوط:

دُعِيْتُ أبا العلاء فذاکَ مَينٌ   و لكنَّ الصَّحيحَ أبو النُزُولِ

(حسين، ۱۹۹۱ م، ج ۳: ٤٦٤– ٤٦٦)

وفي سنة ۳۶۷ وهي السنة الرابعة من حياته، رمته الأيام بأول ما خبأت له مِن كبار المصائب، رمته بالجدري. (المصدر نفسه: ٤٦٦) مما أدَّى إلى كفِّ بصره، ولكنه لم يحُل دون تحصيله العلم؛ لأنَّه ترعرع في وسط علميٍّ وأسرة «قد قرضوا الشعر فأجادوا قرضه»، (المصدر نفسه: ٤٦٢) فأخذ عن أبيه مبادئ العلوم «ولقد بدأ يقرض الشعر ولما يعدُ احدى عشرة سنة» (المصدر نفسه: ٤٦٩) ،ثُمَّ ترک المعرَّة إلى حلب، وإنطاكية، واللاذقية، وطرابلس الشام، وبغداد (شلق،۱۹۸۱م: ۹) طالباً العلم ومختلفاً إلى المكتبات ودور العلم، وبينما هو في بغداد وصل إليه نبأ مرض والدته، فغادر بغداد قاصداً المعرَّة، ولكنَّه في الطريق بلغه نعى أمِّه فزاد ذلکَ في سوءِ حاله فقرَّر العزلة عن الناس، ثُمَّ لزم داره بها رهين محبسيه: منزله وعماه حتى توفي سنة ۴۴۹ هـ. (الحموي، د.تا، ج ۳: ۱۰۸– ۱۰۹و حسين،۱۹۹۱م، ج ۳: ۵۲۴)

موقفه عن الدنيا:

إستوقف الباحثين رأى أبي العلاء في الدنيا، لأنَّه لعن الدنيا مراراً وصَبَّ عليها جام نقمته واستنزل على الدنيا غضبة الله وَكنَّاها أم دفر، فلم يزل يقرعها من اللؤم بكلِّ قارعة حتى أصبح و إنَّه لأكثر الشعراء ذمَّاً للدنيا: (المصدر نفسه: ٤٧٦)

دُنياک تُكْنَى بِأُمِّ دَفْرٍ   لَـمْ يُكْنِها النَّاسُ أُمَّ طِيبِ

(المعرِّي، د.تا، ج ۱: ۱۳۷)

وَ أُمُّ دَفرٍ لَعَمْري شرُّ وَالـدَةٍ   وَبنتُها أُمُّ ليلَى شرُّ مَولُودَه

(المصدر نفسه: ۲۹۱)

فلم يقف في ذمِّها عند هذا الحدِّ بل جاوزه إلى تشبيهها بصور حيوانية كريهة تدلُّ على الفَتک والخديعة:

إنَّ دُنياکَ مِن نَهارٍ وليـلٍ   وَهِيَ في ذاکَ حَيَّةٌ عَرمَاءُ

(المصدر نفسه: ۵۹)

كما يشكو من غدرها وظلمها عليه فلا يطمئنُّ إليها؛ لأنَّه يُظهر لها حبَّاً صادقاً ويريد الاستئناس بها ولكنها تُخَيِّبُه أملاً:

أُريدُ مِن الدنيا خُـمُودَ شُـرُورِهَا   فَتُوْقِـدُ مـا بيْنَ الجوانحِ نَارَها
وَتُظْهِـرُ لي مَقْتاً وَ أُضْمِرُ حُبَّهَا   كأنِّي جَهُولٌ مَا عَرَفْتُ شَنَارَها

(المصدر نفسه: ٤٠٨– ٤٠٩)

فينتهي إلى رفضها بما يكمن فيها من مفاتن وشرور ويصبح شديد الظَّنِّ بها وشديد الحذر منها فنراه ينصح بالإعراض عنها ولو كانت عروساً حسناء جميلة:

إنْ كَانتِ الدنيا عَروساً تُرَى فَلْتَنْصَرِفْ عنكَ بِتَعْنِيسِها
كالغُولِ غَالَتكَ بِتَلْوِينها بَيْنَ تَقَدِّيها وَ تَبْنِيسِها

(المصدر نفسه: ٥٨٤)

ولكن ما هي الظروف والأسباب التي دعته إلى مثل هذه المواقف؟ فَلْنَنْظُرْ إلى المجتمع الذي عاش فيه أبوالعلاء من خلال لزوميَّاته؛ لأنَّه يصوِّره فيه أيما تصوير، فقد عمَّ الشرُّ السهل والجبل؛ ذلک لأنَّ من يسوس الأمور لا عقل له ولا ضمير:

يَسُوسُونَ الأمورَ بِغَيرِ عَقلٍ فَيَنْفُذُ حُكمُهُمْ وَ يُقال سَاسَهْ
فَأُفَّ مِن الحَياةِ وَ أفَّ مِنّي وَ مِن زَمَنٍ رِئَاسَتُهُ خَسَاسَهْ

(المعرّي، د.تا، ج ١: ٥٦٠)

فيظهر أبو العلاء سائماً عن عشرة حكمتْها الذِّلة وسيطرَ عليها الظلم، واستبدَّ بحقوقها الأمراء يظلمونها أشد الظلم... ويكيدون شرَّ الكيد... وإنَّما هم لها أجراءُ، وعنها وكلاءُ. (حسين، ١٩٩١م، ج ٣: ٧٩٤- ٧٩٥)

مُلَّ الْمُقَامَ فَكَم أُعَاشِرُ أُمَّةً أَمرَتْ بِغيرِ صَلاحِها أُمَراؤُها
ظَلَمُوا الرَّعيَّةَ وَ ٱسْتَجَازُوا كَيدَها فَعَدَوْا مَصَالِحَها وَهُمْ أُجَراؤُها

(المعرّي، د.تا،ج ١: ٥٦- ٥٧)

ويوجِّه بغضه على الذين يظهرون النسک فيعمد الناس إليهم مؤمنين ولكنَّهم مقترفون لما ينهون الناس عنه فإنهم يُسيئون مِن جهتين: يُسيئون لاقتراف الآثام، ويسيئون لغش الناس وتضليل العقول:

رُوَيْدَکَ قَدْ غُرِرْتَ وَ أنتَ حُرٌّ بِصَاحبِ حِيلةٍ يَعِظُ النِّساءَ
يُحَرِّمُ فيكمُ الصَّهْباءَ صُبحاً وَيَشرَبُها عَلَى عَمَدٍ مَسَاءَ
إذا فَعَلَ الفَتَى مَا عَنهُ يَنْهَى فَمِنْ جِهَتَينِ لا جِهَةٍ أَسَاءَ

(المصدر نفسه: ٦٠- ٦١)

فطبيعي أن ينصرف أبوالعلاء عن الدنيا وأن يزهد فيها؛ لأنَّ الإنسان ـ في رأيه ـ شرير بطبعه، وأنَّ الفساد غريزة فيه، ولذلک لم ينتظر منه إصلاحاً ولم يرج لأدوائه شفاءً:

إنْ مَازَتِ النَّاسَ أخلاقٌ يُعاشُ بها فَإنَّهم عِندَ سُوءِ الطَّبعِ أسْواءُ

(المعرّي، د.تا، ج ١: ٥٢)

موقفه من المرأة:

الموقف الثاني الذي استقصاه الباحثون هو رأى أبي العلاء المعرّي في المرأة كجزءٍ مِن هذه الدنيا والوجود؛ لأنَّ المؤثرات الاجتماعية والخلقية والفكرية في عهده قد أثَّرت في تكوين مزاجه النفسي، فلذلکَ ساءَ ظنُّه بها كما ساءَ ظنُّه بالدنيا والوجود فنراه ـ كما ذهب إليه الباحثون – (العزاوي، ۱۹۹۹م :۶۳) يرفض المرأة رفضاً مبدئياً شديداً كجزءٍ من فلسفته مِن رفض الوجود:

بَدءُ السَّعادةِ أنْ لَمْ تُخْلَقْ امرأةٌ　　　فَهَل تَوَدُّ جُمادَى أنَّها رَجَبُ

(المعري، د. تا، ج۱: ۸۴)

ثُمَّ يرى استحالة القضاء على وجودها فينظر إليها نظرة واقعية فيستسلم لوجودها غير مؤثرة أو بعبارة أخرى ينوي موتها معنوياً:

عَلِّمُوهُنَّ الغَزلَ و النَّسجَ و الرَّدنَ　　　وَخَلُّوا كِتَابَةً وَقِرَاءَةْ

فَصَلاةُ الفَتَاةِ بِالحَمدِ والإخـ　　　لَاصِ تُجزِي عَن يُونُسٍ وَبَرَاءَةْ

(المصدر نفسه: ۶۲)

فينتهي إلى قبولها عقيماً غير قادرة على فعل الإنجاب:

أَرَى النَّسلَ ذَنْباً لِلفَتَى لا يُقَالُهُ　　　فَلا تَنْكَحَنَّ الدَّهرَ غَيرَ عَقِيمِ

(المصدر نفسه،ج۲: ۳۳۷)

إن شِئتَ يَوماً وُصلَةً بِقَرِينَةٍ　　　فَخَيرُ نِساءِ العَالَمِينَ عَقِيمُهَا

(المصدر نفسه،ج۲: ۲۸۱)

فمن الطبيعي إذا أعرض أبوالعلاء عن النسل، أن يعرض عن الزواج؛ لأنَّه سبيله فلذلک قد نهى عن الزواج قائلاً:

تَواصَلَ حَبلُ النَّسلِ مَا بَينَ آدَمٍ　　　وَ بَينِي وَلَم يُوصَل بِلَامِيَ بَاءُ

تَثَاءَبَ عَمرٌو إذ تَثَاءَبَ خَالِدٌ　　　بِعَدوَى فَمَا أَعدَتنِي الثُّؤَبَاءُ

(المعري، د. تا، ج۱: ۴۷– ۴۸)

فرأى أنَّ من الواجب اتقاء الوجود، والاجتهاد في قطع سلسلته بالإعراض عن النَّسل الذي هو الحافظ لهذا الوجود، وقد عَدَّ أبوالعلاء النسل جناية على الأبرياء، لأنَّه إلقاءٌ لأولئک الأبناء في بيئة مملوءة بالشرور، وقد كانوا بنجوة عنها لو لم يُولَدوا وفي ذلکَ يقول:

عَلَى الوُلْدِ يَجنِي وَالِدٌ وَلَو أنَّهُم　　　وُلَاةٌ عَلَى أمصَارِهِم خُطَباءُ

وَزَادَکَ بُعداً مِن بَنِيکَ وَ زَادَهُم　　　عَلَيکَ حُقُوداً أنَّهُم نُجَبَاءُ

يَرونَ أَبَاً أَلْقَاهُمُ فِي مُؤَرَّبٍ　　　مِن العَقدِ ضَلَّت حَلَّهُ الأُرَبَاءُ

(المصدر نفسه: ۴۸)

وقوله في إيثار العقم على الإيلاد والعدم على الوجود:

أَرَى وُلــدَ الفَتَــى عِبئــاً عَلَيه لَقَد سَعِدَ الذي أمْسَى عَقِيمَا
فَـإمَّــا أنْ يُـربّــيَهُ عَــدُوّاً وإمَّــا أن يُخلِّفَــهُ يَتِيمَـا

(المصدر نفسه،ج۲: ۳۲۳)

موقفه عن الموت:

حين بلغت به المكابدة أقصـــى مداها والمجاهدة أقســـى مراتبها ولم يجد الخلاص مِن كلّ هذه المعاناة رأى أبوالعلاء في الموت أنجع دواءً، ساري المفعول، يستخلصه مِن همومه ومعاناته، بحيث يحسب الموت انتصاراً له على الموت بدلاً من مرارة الاغتيال. (شرف الدين، ۱۹۸۵م: ۱۲۱) ثُمَّ يترك ذلك التشـاؤم الذي كان قد سـيطر عليه في الحياة ويسـلك سـبيل التفاؤل في الموت ويقول فيه بصـراحة: «نحبُّ الحياة ونكره الموت، وما نعرف لِشـيءٍ من ذلك سـبباً لقد عرفنا شـرَّ الحياة وضـرَّها، وأرى أنَّا لا نكره الموت إلا لجهلنا إيَّاه، وغفلتنا عنه إننا لم نذق طعمه ولم نبلُ ثمره! وَأيُّ فرق بين الموت والنوم إلا قصـــر هذا وطول ذاک؟!». (حســـين، ۱۹۹۱م، ج۳: ۸۲۲- ۸۲۷)

وَنَومِيَ مَوتٌ قَرِيبُ النُّشُورِ وَمَوتِيَ نَومٌ طَوِيلُ الكَرَى

(المعري، د. تا، ج۱: ۷۳)

فيوصـي على تهوين لقاء الموت ويرى خشـونته وغلظته ألين مسّـاً من نعومة الحياة ورقتها وإنَّما نحن سـالكون سـبيل أمثالنا الذين مضوا:

فَهَوّنْ عَلَيكَ لِقَاءَ المَنُونِ وَقُل حِينَ تُطرِقُ «أَطْرِقْ كَرَا»

(المصدر نفسه: ۷۳)

ويرى أبوالعلاء أنَّ ابن أنثى يُظلم من جهتين فالأولى: آلام الحياة ومعاناتها والأخرى الخوف من الموت فيتمنَّى الراحة والخلاص منه:

حَيَـاةٌ عَنَـاءٌ وَ مَوتٌ عَنَى فَلَيْـتَ بَعِيدَ حَـمَامٍ دَنَـا
وَمَنْ ضَمَّهُ جَدَثٌ لَم يُبَلْ عَلَى مَا أَفَـادَ وَ لا مَا اقتَنَى
يَصِيرُ تُرابـاً سَواءٌ عَلَيـ ـهِ مَسُّ الحَرِيرِ وَ طَعنُ القَنَا

(المصدر نفسه: ۷۵- ۷۶)

فلتخفيف آلام الحياة والموت أو لتهديم إحداهما سالكاً سبيل التقليل يتمنَّى للوليد الذي لما يعرف من الحياة حلواً ولا مرَّاً ولما يرَ من العيش خيراً، ولا شرَّاً، موتاً يريحُهُ من مستقبل أيامه ومستأنف زمانه، موتاً يصرفه عن ثدي أمِّه قبل أن يرتضع منها قوتاً يشوبه الشرُّ وغذاء يخالطه السوء:

وَلَيْتَ وَلِيداً مَاتَ سَاعَةَ وَضْعِهِ وَلَمْ يَرتَضِعْ مِن أُمِّهِ النُّفَسَاءِ

(المصدر نفسه: ٦٢)

كلُّ من قرأ ديوان لزوم ما لا يلزم بإمكانه أن يســـتشـــفَّ مِن خلال قراءته مواقف أبي العلاء في الدنيا والمرأة والموت مِن غير ما صـــعوبة، وهذا الذي أوردناه هو ما ذهَب إليه أكثر الباحثين فيما كتبوا عن أبي العلاء ولكن يبدو من خلال القراءات المتعمقة أنَّ أباالعلاء كان يحبُّ الدنيا والمرأة، ولكنه كان في حبهما متأثراً بالفيلسـوف اليوناني أبيقور. ذلک لأنَّ أباالعلاء عاش في العصـر الثاني للعباسيين، وكان هذا العصر عصر ازدهار عقلي وأنَّ المسلمين زهت فيه حياتهم العَقلية وفي ضوءها تأثر أبوالعلاء ببعض الفلاسفة ومنهم أبيقور.

والناس لا يفهمون من أبيقور إلّا رجلاً مسـتهتراً باللذات، متهالكاً عليها فأين هذا الرجل من أبي العلاء غير أنَّ الدارس يرى الفرق بينه وبين أبي العلاء لم يكن عظيماً. (حسين، د.تا، ج۳: ٦٢٨– ٦٦٩)

كان هذا الحكيم يرى أنَّ من حق الإنسـان أن يستمتع باللذات إلى أقصى حدٍّ ممكن ولكن هذا الاستمتاع لا سبيل إليه؛ لأنَّه لا يصـحُّ ولا يستقيم إلا اذا خلا من الألم والظلم. (حسين،١٩٩١م، ج٣: ٨٥٩). لا جرم انتهى أبيقور إلى رفض اللَّذة عملا، لأنَّه لم يستطع أن يحصِّلهما خالية من الألم، لذلک أنفق حياته في مثل حال أبي العلاء من الزهد والقناعة فكان لا يأكل إلا الشعير ولا يلبس إلا خشن الثياب.

ظهر مما تقدم أنَّ أباالعلاء رأى في الدنيا والمرأة اللَّذة والألم معاً ولكنه أراد أن يحصِّلهما دون الألم ولم يستطع إلى ذلک سبيلاً، أو أنّه رأى في الدنيا والمرأة كبيرَ عناءٍ وقليل لذة، وانصرف عنهما متأثراً بفلسفة أبيقور، ولعلَّ إيثاره الموت يعود إلى قاعدة اللَّذة؛ لأنَّه رأى أنَّ الألم أكثر من الموت فآثر الموت.

والشـيء الآخر الذي تجدر الإشـارة إليه هو أنَّ أباالعلاء ذهب في الدنيا والمرأة والموت مذهَب من يحبُّ نفسـه ويؤثرها بالخير إذ إن هذه النفسية تُشَمُّ مِن بعض أشعاره:

إذَا كَانَ إكرَامي صَدِيقِي وَاجِباً   فَإِكرَامُ نَفسِي . لَا مَحَالَةَ . أَوجَبُ

(المعري، د.تا،ج١: ٨١)

ومن هنا يمكننا أن ندعي أنَّ أباالعلاء ينتمي إلى النفعيين الذين يرونَ أنَّ كلَّ نافع جميل مهما يكن شــكله ومنظره، فأبوالعلاء وجد إيثار نفسه على الدنيا والمرأة وإيثار الموت على الحياة نافعاً فرأى الجمال في انصراف عن كل هؤلاء وإن خالف القياس والشرع.

الرموز الأنَّثوية في شعر المعرِّي:

عَلَّلنا انصراف المعرّي عن الدنيا والمرأة بتأثُّره ببعض الفلاسفة وإيثار نفسه على غيره ولكن يبدو أنَّ التوفيق لم يواكبه في تطبيقهما في آفاق حياته، فلذلک نستقصي تعامله مع ملذات الحياة وخاصةً الأُنَّثى كنموذج منها، لعله يهدينا إلى تصور جديد.

مما يثيرُ التسـاؤل في هذا الشـأن ويسـتدعى تفسـيراً جديداً هو مواقف الباحثين المختلفة عن الملذات عند المعري، فهذا الراجكوتي يرفض تغزل المعرّي للاشتهاء. (شلق،١٩٨١م: ٢١) وذلکَ مارون عبّود يدحض ما ذهب اليه الراجكوتي قائلاً: «إن المعرِّي عرف اللذائذ والمتع في شبابه الا الخمرة وهذا ما يوافقه عليه ابن النديم وسواه من مؤرخي أبي العلاء القدماء». (المصدر نفسه: ٢١)

ثُمَّ أدلت الأسـتاذة عائشـة عبد الرحمن بدلوها في الموضـوع وألجأتها دراسـتها عنه إلى «أنَّ محاولات أبي العلاء كلها شعراً كان أو نثراً جهادٌ لكفِّ نفســـه عن حبِّ الدنيا بعد أن حيل بينه وبينها لفقد بصـــره. فاذا تغزَّل فهو يتغزَّل بهذه الدنيا وملذَّاتها وإذا تحمَّس فحماسته رمز لجهاده لكفِّ نفسـه عن طلب الدنيا التي فرض عليه اليأس منها. بل إذا كتب رسـالة الغفران ووصـف الجنَّة وما فيها من النعيم فهو لا يصف إلا هذه الدنيا التي أحبَّها وكلفَ بها ثُمَّ حيلَ بينه وبينها». (حسين، ١٩٨٤م: ٤٧– ٥٥)

لعلَّ «علي شـلق» يؤيد ما ذهب إليه مارون عبود حينما يقول: «تحدث المعرّي في رسـالة الغفران وأطال الحديث، ولهاً، وافتنَّ في اللهو، عابثاً منطلقاً على هواه بحرّية لا تحدُّها حدود الجسد... وخلف كلّ صورة من صوره شيءٌ حادٌ، عارمٌ، قحام، اسمه التحدّي والتشهي، والتطاول في جو واحد.

بالتحدي لم يلن عوده لرياح الأيام، وعزلة المحبسـين، وأوهام السـتين من العمر، فهو يصـوّر بشـوق ولهاث دم اللذائذ التي حرم منها... وهو المقرُّ والمعترف برغباته في الحياة:

وَ لَمْ أعْرِض عَنِ اللَّذاتِ إلّا لأنَّ خِيارَها عَنِّي خَنَسْنَهْ

وبالتشهي واصل السير في مضايق الحياة، وسافر طلباً لمشتهياتها وأمجادها، وفتح باب داره وعزلته للكبار والصغار من المقبلينَ عليه. وإنَّه بتطاوله ترك بغداد وهو لها عاشق وبها متيم، ولكنه مازال عالق القلب بها، واعتزل وبقي متصلاً بكل ما كتبه إليه، أو ردَّ عليه، وحاور، وأملى، وكل سطرٍ من سطوره لم يخمد فيه لهب الشوق إلى الوجود والرغبة في العيش رغم القساوة التي أخذ بها نفسه... وهل يجحد جاحدٌ أنَّ تعلقه بأمّه هو تعلقه بالحياة ذاتها، وأنَّه إن حزن فإنَّه يحزن على الفرح الذي لم يرقص له قلبه والنور الذي لم تَسبح فيه عيناه؟». (شلق، ١٩٨١م: ٨٥- ٨٧)

لكننا نذهَب مذهب الأصـالة في الملذات عند المعرّي ونعتقد أنّه عرف اللذائذ بطبعه، وتركها بتطبعه كما يقر ويعترف في لزومياته أنَّ الطبع أصيلٌ و التطبع دخيل:

وَ الخَيرُ يَفعَلُهُ الكَرِيـمُ بِطبعِهِ وَ إذَا اللَّئيمُ سَخَا فَذَاكَ تَكَلُّفُ

(المعري، د.تا، ج٢: ٥٧- ٥٨)

ومن تطبعه تعامله مع الأنثَى؛ لأنَّه لم يقدر أن يسـتر حبَّها بطبعه فكأنَّه حينما «افتقد حواءه في البشـر راح يتلمس أخرى بديلة في مظاهر الحياة والطبيعة والكون كي تبدِّد عذاباته وتؤنس وحشـته... وإذا ما تجسَّـمت حواء البشـرية أمثولةً للمفاسـد والشـرور غالباً فانه يدَّخر لأنثَاه الوهمية ما يهيئها، لأن تقوم بالضـد من ذلک أنموذجاً للخير والوفاء وعلى نحو يشـى بمرارة دفينة وراءَ الكلمات». (العزاوي، ١٩٩٩م: ٦٤) ومن ذلک على سـبيل المثال نرى أنّه يجسّـد الصـمت بصـورة المرأة ويبررها عن الخطأ حُباً لأنثَاه الوهمية المتخيلة وتعبيراً عمَّا يلقنه إليه طبعه:

يا ربَّـةَ الصَّـمْتِ أنـتِ آمِنـةٌ إذا هَفَـا نَاطِـقٌ بالسَّقَطِ
وَصلكِ بالنّارِ و الشَّنارِ فَقَد غِفْنَاهُ إذ قطَّ شِعرَه فَقَطِ

(المعري، د.تا،ج٢: ١١)

وفي موضع آخر يؤثر مؤنثات الكواكب على نساء البشر رجوعاً إلى طبعه في حبِّ الأنثَى بالرغم أنَّ أمانيه العدمية تتردد أصداؤها في جنبات شعره:

كُوني الثريّا أو حَضَـارِ أو الـ جَوزَاءَ أو كَالشَّمسِ لا تَلِدُ
فَتَلكَ أشرَفُ مِن مُؤَنَّثَةٍ نَجَلَتْ فَضَاقَ بِنَسلِها البَلَدُ

(المعري، د.تا، ج١: ٢٨٠- ٢٨١)

كما أشرنا سابقاً فإنَّ المعرّي زهد في الدنيا وملذاتها ولذلک غاب عن شعره الوصف الحسي للمرأة، ولكنه لم يستطع التخلص مِن فطرته وطبعه: «فأشبع من خلال كلماته جوع الحرمان والقهر الذي عاناه في صراع محموم في أعماقه بين حب غريزي مقبل على (الحياة/ المرأة) وبين نفور متولد عن قسوة تحكيمه للمعايير العقلأنية فيها». (العزاوي، ١٩٩٩م: ٦٥) فلننظر في هذا الصدد إلي قوله في الناقة:

مَنْ لي بِإملِيسِيَّةٍ أغنَى بها وَجْنَاءَ تَقْطعُ في الدُّجى الإملِيسَا

(المصدر نفسه: ٥٦١)

فيتمنَّى ناقة قوية تقطع به القفار نفوراً من الناس، ولكنه يؤثرها أن تكون ناعمة الملمس منطلقاً إلى طبعه ومشيراً إلى مرارة دفينة في كيانه من وراء الكلمات ومثله قوله في الخطبة في إحدى درعياته، فانَّه يحاول تذوقها في خياله إن افتقدها في الواقع:

مُعَنِّسَةٌ إن جاءَها الرُّمْحُ خَاطِباً سَقَتْهُ ذُعَافَ المَوتِ شَمطَاءُ عَانِسُ

(المعري، ١٣٢٤هـ ،ج٢: ٢٨٥)

فانّه لما جعل الرمح القاصد للدرع خاطباً، جعل الدِّرع مُعَنِّسةً وعانساً لامتناعها أن تجيب خطبة الرمحِ. (المصدر نفسه: ٢٨٥) فَصَوَّر لنا تصويراً جميلاً عن مظاهر الحياة وملذاتها مشبعاً جوع حرمانه ومعاناته ومن ذلک قوله:

حَصَانٌ بَغِيٌّ ما ثَنَتْ يَدَ لامِسٍ ذَكَتْ و أحَسَّ القُرَّ فيها اللَّوامِسُ

(المصدر نفسه: ٢٨٥)

فشبه الدرع بملامح أنثوية معبّراً عن رغبته في أنثاه الوهمية ومثله قوله في تصوير درعيه كجارتى الرجل أي امرأته:

إنَّما جارَتَايَ جَارِيَتَا حيٍّ وَ مازَالَت النِّساءُ كَثِيراً

(المعري، ١٣٢٤هـ، ج٢: ٢٢٣)

وممَّا يستحق ذكره في هذا المضمار موقع الأم في حياته وشعره ويعتبر موقفه منها خروجاً على موقفه العام إزاء المرأة فنراه يكبرها تعظيماً ويضرب صفحاً عن كينونتها النسوية ويجعلها أعظم وأجلَّ من أن يرثيها لسانه:

وَ أُكبِرُ أنْ يُرَثِّيها لِسَانِي بِلَفظٍ سَالِكٍ طُرُقَ الطَّعَامِ

(المصدر نفسه: ١٢٠)

ثُمَّ يشير إلى ما بذلته من الجهد في رعايته وتربيته ويدَّعى أنَّ ما استقى من مناهلها هو أتمُّ وأكمل بحيث لا يحتاج إلى مورد آخر حتى ظُنَّ به أنّه نَعامٌ في استغنائه عن الموارد:

كَفَاني رِيُّها مِنْ كلِّ رِيٍّ إلى أن كِدْتُ أُحْسَبُ في النَّعامِ

(المصدر نفسه: ۱۳۳)

وإحساسه المرهف بالأمومة ولهفته إليها قادته إلى أن يكتشف في مظاهر الطبيعة والحياة ضروباً رمزيَّةً من الأمومة التي فقدها في الواقع فإنَّه يخاطب الدنيا دائماً بأعذب كلمة عنده وهي الأم بالرغم مِن قهرها وانصرافه عنها وزهده فيها:

خَسِستِ يا أُ مَّنا الدُّنيا فَأُفٍّ لَنَا بَنُو الخَسِيسَةِ أَوْباشٌ أَخِسَّاءُ

(المعري، د.تا، ج۱: ۵۱)

فلعلَّ فقد أمِّه جعله يتواری خلف دروع اخترعها له وهمه؛ لأنَّها كانت حصنه الحصين فلهذا لسنا نشاطر عميد الأدب العربي فيما ذهب إليه حول درعياته قائلاً: «ولقد حَاوَلنا أن نعلِّل عناية أبي العلاء بالدروع خاصَّة فلم نستطع أن نفهم لذلک سبباً إلا أن يكون قد حفظ في وصف الدرع، شيئاً كثيراً فأراد أن يظهر مقدرته الفنية بوضع ديوان لها خاصة». (حسين، ۱۹۹۱م، ج۳: ۵۳۱)

النتيجة:

۱- كان أبو العلاء سائماً عن عشرة حكمتْها الذِّلة وسيطرَ عليها الظلم، واستبدَّ بحقوقها الأمراء يظلمونها أشد الظلم، ويكيدون شرَّ الكيد، وإنَّما هم لها أجراءُ، وعنها وكلاءُ، فطبيعي أن ينصرف أبوالعلاء عن الدنيا وأن يزهد فيها؛ لأنَّ الإنسان ـ في رأيه ـ شرير بطبعه، وأنَّ الفساد غريزة فيه، ولذلک لم ينتظر منه إصلاحاً ولم يرج لأدوائه شفاءً.

۲- إنه كان يری فی المرأة بأنها جزء من هذه الدنيا والوجود؛ لأنَّ المؤثرات الاجتماعية والخلقية والفكرية في عهده قد أثَّرت في تكوين مزاجه النفسي، فلذلکَ ساءَ ظنُّه بها كما ساءَ ظنُّه بالدنيا والوجود، ثُمَّ يری استحالة القضاء علی وجودها فينظر إليها نظرة واقعية فيستسلم لوجودها غير مؤثرة أو بعبارة أخری ينوي موتها معنوياً.

۳- وقد عَدَّ أبوالعلاء النسل جناية علی الأبرياء، لأنَّه إلقاءٌ لأولئک الأبناء في بيئة مملوءة بالشرور ويبدو من خلال القراءات المتعمقة أنَّ أباالعلاء كان يحبُّ الدنيا والمرأة، ولكنه كان في حبهما متأثراً بالفيلسوف اليوناني أبيقور، ذلک لأنَّ أباالعلاء عاش في العصر الثاني للعباسيين، و كان هذا العصر عصر ازدهار عقلي وأنَّ المسلمين زهت فيه حياتهم العَقلية، وفي ضوءها تأثر أبوالعلاء ببعض الفلاسفة ومنهم أبيقور الذي ينتمي إلی النفعيين وظهر مما تقدم أنَّ أباالعلاء رأی في الدنيا والمرأة اللَّذة والألم معاً ولكنه أراد أن يحصِّلهما دون الألم ولم يستطع إلی ذلک سبيلاً أو أنّه رأی في الدنيا والمرأة كبيرَ عناءٍ وقليل لذة، و انصرف عنهما متأثراً بفلسفة أبيقور، ولعلَّ إيثاره الموت يعود إلی قاعدة اللَّذة؛ لأنَّه رأی أنَّ الألم أكثر من الموت فآثر الموت. وبما أن النفعيين يرونَ أنَّ كلَّ نافع جميل مهما يكن شكله ومنظره، فأبوالعلاء وجد إيثار نفسه علی الدنيا والمرأة وإيثار الموت علی الحياة نافعاً، فرأی الجمال في انصراف عن كل هؤلاء وإن خالف القياس والشرع.

۴- يبدو أنّه عرف اللذائذ بطبعه، وتركها بتطبعه ناسياً إقراره واعترافه في لزومياته أنَّ الطبع أصيلٌ والتطبع دخيل.

المصادر والمآخذ

[۱] ابن خلكان، شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد. (۱۴۱۷هـــــ، ۱۹۹۷م). «**وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان**». بيروت: دار إحياء التراث الأدبي. الطبعة الأولى.

[۲] حسين، طه. (۱۹۹۱م). «**الفصول و الغايات**»، في سلسلة (من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، القرن الرابع الهجرى). بيروت: دار العلم للملايين.بلا ط.

[۳] ------. (۱۹۹۱م). «**تجديد ذكرى أبي العلاء المعري**»، في سلسلة (من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، القرن الرابع الهجرى). بيروت: دار العلم للملايين. بلا ط.

[۴] ------. (۱۹۹۱م). «**صوت أبي العلاء المعري**»، في سلسلة (من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، القرن الرابع الهجرى). بيروت: دار العلم للملايين. بلا ط.

[۵] ------. (۱۹۸۴م). من مقالة« أبوالعلاء المعري» لعائشـــة عبد الرحمن. ضـــمن كتاب «خواطر». بيروت: دار العلم للملايين. بلا ط.

[۶] ------. (۱۹۹۱م). «**صوت أبي العلاء المعري**»، في سلسلة (من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، القرن الرابع الهجرى). بيروت: دار العلم للملايين. بلا ط.

[۷] الحموى، ياقوت.(دون التاريخ). «**معجم الأدباء**». بيروت: دار إحياء التراث العربي. بلا ط.

[۸] شرف الدين، خليل. (۱۹۸۵م). «**أبوالعلاء المعري مبصر بين عميان**». بيروت: دار و مكتبة الهلال.

[۹] شلق، علي. (۱۹۸۱م). «**أبوالعلاء المعري والضبابية المشرقة**». بيروت: الموسسة الجامعية للداراسات و النشر و التوزيع. بلا ط.

[۱۰] العزاوي، نادية غازي. (۱۹۹۹م). «دلالات الرمز الأنثوي في شعر المعري». مجلة المورد. بغداد. العدد الأول. (۳۲-۲۲).

[۱۱] المعري، أبوالعلاء. (دون التاريخ). «**ديوان لزوم ما لا يلزم**». حرّره وشرحه الدكتور كمال اليازجى. بلا ط.

[۱۲] المعري، أبوالعلاء. (۱۳۲۴هـ. ق). «**شرح التنويرعلى سقط الزند**». مصطفى أفندى و أخيه. بلاط.